﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْثُ النّاسِ للحساب جارٍ بمُقْتضى قُدرةِ اللهِ وعِلْمِه

لمّا ذكَرَ في الآيةِ السابقة أنَّ مَرجِعَ النّاس جميعًا إليه: الذين تابوا، والذين تولَّوا، أخبر هنا عن حالٍ من أحوال تولّي المُعرِضين التي سيُحاسبون عليها يوم يُرجَعون إليه، بما يقتضي اطِّلاعه عليهم وعِلمَه بشؤونهم؛ ليُخبِر بذلك: أنَّ رجوعهم إليه للحساب هو جارٍ بمقتضى قُدرته وعِلْمِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَثْنُونَ﴾: مِنَ الثَّنْي، وهو رَدُّ بَعضِ الشيء على بعضِه الآخَر، وطَيُّ أحدِ جزئيه على جُزئِه الثاني، فأصل (ثَنَيَ) تكرير الشيء مرَّتين اثنتين، أو جعْله شيئين متواليَيْن أو مُتباينَين، والمراد هنا: طَوَوا صدورهم على الكفر والغِلِّ والإعراض حتى جعلوها كجُزْأين اثنين، جزْءٍ خفيٍّ على السّوء، وَجزْءٍ ظاهرٍ خِلافُه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكُفْرُ يَحْجُبُ البصيرةَ عن العقل

ألا إنَّ هؤلاء المشركين يُضمِرون في صدورِهم الكفْر؛ ظنًّا منهم أنَّه يَخفى على اللّه ما تُضمِره نفوسُهم، ألا يعلمون حين يغطُّون أجسادهم بثيابهم أنَّ اللّه لا يَخفى عليه سِرُّهم وعلانيتهم؟ إنَّه عليم بمَكْنوناتِ صدورِهم من النِّيّات والضمائر والسرائر[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ثني).
(2) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى جهل المشركين، وشدَّةِ ضلالهم، وإلى أنَّ العداوةَ والبغضاء التي يَطوون قلوبَهم عليها تدفعُهم إلى عملِ ما لا يجوزُ، ويَفْتِنون المؤمنين عن دينهم، وأنَّ ازورارَهم عمّا لا يحبون من الحقِّ، وانصرافَ صدورهم عنه، وهم يريدون أن يَسْتَخْفُوا عن النبي ﷺ، وينسَون أنَّ الله بكلِّ شيء عليم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

كـلُّ إعـراضٍ عـن الـلـه من ضعف العقل أو استحسان الهوى

جملة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مما قبلها، ولذلك فُصِلَتْ، كأنَّه لمّا تقدَّم تبشيرُهم بالفضْلِ الكثير إنْ أقبَلوا، وإنذارُهم بالعذابِ الكبير إنْ تولَّوا، فقيل: ماذا كان حالُهم؟ أعْرَضوا أم أقبلوا؟ فأجيب: لا، بل تَوَلَّوا ظاهرًا كما تولَّوا باطنًا[2].

نكتة العدول من الخطاب للنبيِّ ﷺ إلى الحديث عنهم بضمائر الغيْبة:

مَـنْ يُـعرِض عن اللهِ يُعرِض اللهُ عنه

العدول من خطاب النبيِّ ﷺ لهم في قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٌ﴾ وخطابهم بقوله: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ إلى الحديثِ عن أشخاصهم بطريق الغَيْبة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾؛ للإشارة إلى كمالِ علمِ الله بهم واطِّلاعه على ظواهرهم، بعد تقرير كمال قدرته عليهم في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ للتَّنبيه على تلازم كمالِ قدرته مع كمال عِلْمِه، وأنَّ مَرجِعهم إليه في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ حاصلٌ بأثَرِ تلك الصِّفتين: القدرة والعِلم، فلم يقل: (ألا إنّكم تَثْنون صدوركم)، ونُكتَةُ الالتفات من الخطاب للغيبة؛ لإبعادِهم والإعراضِ عنهم؛ إذِ التركيبُ في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ جارٍ في معنى الإخبار عن صُدودِهم وإعراضِهم، فلمّا أعرَضوا في الظّاهر؛

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3664.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/235، والآلوسي، روح المعاني: 6/195.

أعرضَ عنهم في ظاهِرِ النَّظْمِ كذلك بتركِ خِطابِهم، والحكايةِ عنهم بطريق الغَيبة؛ لتقرير الإعراضِ وعدمِ المواجَهة[1].

براعةُ الاستهلال بالمؤكِّدات في صدر الآية:

افتُتِحت الآيةُ الكريمةُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ بـ﴿أَلَآ﴾ الاستفتاحيَّة و(إنّ) التحقيقيَّة المؤكِّدة لجملة الإسنادِ الاسميَّة، لثلاثة وجوه:

تحقيقُ أوصاف الكافرين لئلّا يلتبس حالهم على أحد

الأوَّل: الاستفتاحُ بها على القلوب، لِتَعي وتَنْتَبِه لمضمون الخبرِ، تنبيهًا على غرابتِه وعَجَبِه، ولذا استحقَّ الالْتِفَاتَ إلَيْهِ والتمهيدَ لَهُ.

الثاني: الإشارة إلى تَحقُّقِ ما بعد ﴿أَلَآ﴾، ولذا تُساقُ (إنّ) بعدها تقريرًا لهذا التَّحقُّق، ومُبالغةً في وقوعِه وحصولِه.

الثالث: العناية بتعليم الناسِ أنَّ الله ذو علمٍ وإحاطةٍ تامَّةٍ بخلْقِه؛ إذْ أنْبأ عن دقيقِ أحوالِهم بطريقِ التأكيدِ والتحقيق، ونَدْبِ السّامعين للإصغاء والإقبالِ والتفرُّغ لما سيُلقى ويُحكى[2].

نكتةُ التَّعبير بـ﴿يَثْنُونَ﴾ من حيث مادَّتُها وصيغتها:

قلوبُ الكافرين فاسدة، تَلفِظُ الصحيحَ وتَستَمْلِحُ القبيح

قوله: ﴿يَثْنُونَ﴾ من ثنى الشيءَ؛ إذا لَواهُ، وطَواه، فردَّ أوَّلَه على آخِرِه، وفي إسناد الثَّنْيِ إلى الصدور ثلاث دلالات:

الأولى: أنَّهم خارِجون عن حدِّ الاعتدال والسَّويَّة في التَّفاعُلِ مع الحقِّ، فصدورُهم مَثْنِيَّةٌ عليه بالشَّكِّ والإعراض والغِلِّ والكراهية.

الثانية: أنَّ قلوبهم مائِلةٌ غيرُ قابلة، فكأنَّ الحقَّ لا يَنْفُذُ إليها، وإذا نفذَ؛ تدحرج منها، فلا تَصلُح له، ولا يَثْبُتُ فيها.

الثالثة: أنَّ صدورهم تحتفِظُ بالوسخ والدَّرَن، كما يحتفظُ الشيء المَثْنِيُّ بكثْرةِ الدَّخَلِ والقَذَرِ، فحاصِل التعبير بِثَنْيِ الصُّدور: الدَّلالة على أنَّ صدورهم لافِظَةٌ للصَّحيح، مُمْسِكَةٌ للقبيح[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/320.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/320.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/196.

بلاغةُ الحقيقةِ والاستعارة في ثني الصُّدور:

الـكـافِـرُ جـاهـلٌ بـربِّـه لا يَـقْـدُرُهُ حقَّ قدرِه

المراد من قوله: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الهيئة الجسمانيَّة؛ إذْ كان الواحد من المشركين يلقى النبيَّ ﷺ، فيُطأطِئُ رأسَه، ويَحني ظهرَه، فيَثْني صدره؛ كراهيةً للقاءِ النبيِّ ﷺ وابتعادًا منه ورغبةً عنه، وعلى هذا المعنى فالكلام جارٍ على الحقيقة، ويصحُّ إجراء الكلام على المجاز بتوجيه معنى الجملة إلى الهيئة النفسيَّة المُشَبَّهةِ بهيئةٍ جسديَّة، على سبيل الاستعارة التمثيليَّة بتشبيه حالِهم في إضمار العداوة للنبيِّ ﷺ في نفوسِهم وتمويه ذلك عليه وعلى المؤمنين بحال من يَثني صدرَهُ لِيُخْفيه ومن يَسْتَغْشي ثوبَه على ما يريد أن يَسْتُره به، أو هو مجازٌ على سبيل الكنايةِ عن الإعراضِ عن الحقِّ؛ لأنَّ ثَنْيَ الصدر معناه تَرْكُ الإقبال على الشيء؛ لأنَّ مَنْ أقبلَ على شيءٍ؛ واجهَهُ بصدرِه، ومنْ أعرضَ؛ ثَنَى صدرَه، وأعطاه ظهْرَه، أو الكنايةُ جاريةٌ في معنى الخفاء؛ لأنَّ ثَنْيَ الصُّدور يلزم عنه انطواؤها على خفيٍّ، فيكون عبارةً عن إضمار الكفر وتمكُّنه من بواطنهم[1].

معنى اللّام في: ﴿لِيَسْتَخْفُوا﴾:

الـكـافـرون لا تتجاوز عقولُهم ما ظهر لهم

اللام في قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُوا﴾ للتعليل، أي: الاستخفاءُ عِلَّةٌ لِثَنْيِ صدورِهم، والفعل (يستخفوا) مضارع منصوب بأنِ المضمرة، فالتقدير: (أنْ يستخفوا)، والجملة في تقدير مصدرٍ مؤوَّلٍ بمعنى (الاستخفاء)، أي: يفعلون ثَنْيَ الصدور لعلَّةِ الاستخفاء، وعليه: فلامُ التعليل متعلِّقة بـ ﴿يَثْنُونَ﴾، ويجوز تعلُّق اللام بفعلٍ مُضمَرٍ على الإرادة، على أنَّه حال، أو معطوف على ما قبله، أي: ويريدون لِيستخفوا[2].

نكتةُ زيادة السّين والتاء في ﴿لِيَسْتَخْفُوا﴾:

السين والتاء في قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُوا﴾ للتأكيد، والفعل من

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/150، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/16، والآلوسي، روح المعاني: 6/196.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/379، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/123، والآلوسي، روح المعاني: 6/196.

الاستخفاء، وأصل الكلام: (لِيَخْتَفُوا)، فالفعل من الاختفاء، ونظيره في التوكيد والمبالغة في إرادة الفعل: استجابَ، بمعنى أجابَ[1].

استخفاء الكافرين من الله أو من رسوله دليلُ حماقتِهم

معنى (من):

(مِنْ) في قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾: في معنى التعليل، أي: الرسول ﷺ هو عِلَّة استخفائهم، أي: يستخفون لأجل كراهيتهم لك وبغضهم للحقِّ، وآثَر التعبير بـ (مِنْ) دون حرف العِلَّة للدلالة على مَنشأ استخفائهم الذي حملهم عليه، ويصحُّ أنْ تكون (مِنْ) بمعنى المُجاوزة؛ لأنَّ قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ يحملُ معنى الانصراف والإعراض، أي: يستخفون عنك انصرافًا وإعراضًا، وإنَّما عبَّر بـ ﴿مِنْهُۚ﴾ دون (عنْه) لإفادة القُرب، فـ(مِنْ) تدخل على ما قرُبَ من الأسماء، و(عن) تكون لِما بَعُد منها، فهم يستخفون منه رغم أنَّه قريبٌ منهم وقريبون منه، وهو نعيٌ على عقولهم بأنَّ استخفاءَهم غيرُ خافٍ على الله ورسوله، وغير مفيدٍ لهم؛ إذِ القُربُ ممَّن يستخفون منه يجعل فِعلَهم هَدَرًا وعبَثًا، ويصحُّ أنْ تكون على بابها من إفادة معنى ابتداء الغاية، أي: الرسول ﷺ هو مَبْدأ استخفائهم، ثمَّ يشتدُّ الأمر، فيستخفون من الله خالقِهم، فالغرض بيان أنَّ استخفاءهم هو أيسرُ أحوالهم التي يُبادِئون بها الرسول، وما وراء الاستخفاء أشدُّ وأعظم، فابتداء الغاية يفيدُ تعيين الجهةِ التي يُباشرون الفعلَ معها[2].

يتنكَّر الكافرُ من رسول الله وهو أرحمُ الناس به

عَوْدُ الضمير في ﴿مِنْهُۚ﴾:

الضمير في ﴿مِنْهُۚ﴾ في قولِه: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ يعود على الرسول ﷺ، وذلك من وجهين: الأوَّل: على اعتبار تعلُّق اللام في ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ بـ ﴿يَثْنُونَ﴾. الثاني: بإجراء ثني صدورهم على الهيئة الجِسميَّة الحقيقيَّة، وتولية ظهورهم للنَّبيِّ ﷺ لئلّا

يَستَخْفُون من الرسول ﷺ فيُطلِعُه اللهُ عليهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 321، والخضري، من أسرار حروف الجرّ، ص: 333.

يَرَوْهُ، لِشدَّة كَرَاهِيَتِهِمْ له، ويحتمل عود الضمير على اللّه ﷻ من وجهين: الأوَّل: على إضمار فعل الإرادة، أي: (ويريدون الاستخفاء من اللّه).

الثاني: بإجراء ثني الصُّدور على الهيئة النفسيَّة المجازيَّة، عبارةً عمّا تنطوي عليه صدورهم من البُغض والغِلِّ وإعراض الباطن، فعلى هذا يعود الضمير على اللّه، أي: يريدون أن يستخْفوا من اللّه؛ فلا يطَّلع رسولُه ولا المؤمنون على ما في قلوبهم، فيقع استخفاؤهم في قصْدِهم من النّاس لا من اللّه، وقد حكى القرآن هذه الحال في قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: 108][1].

نكتةُ الفصل في: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾:

جملة: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ من تمام قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، فهي قسيمةٌ لها ونظيرةٌ لها في تقرير معنًى بإزائها، ولكمال الاتصال بينهما وإجراء الثانية مجرى التأكيد لما قبلها فُصِلَتْ[2].

يتخفّى الكافرون بثيابهم واللّه من ورائهم محيط

فائدةُ إعادة ﴿أَلَا﴾:

أعيدتْ ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، بعد ذِكْرِها في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ لزيادةِ تحقيق الخبر، ولِقصدِ حكايةِ كلِّ حالٍ من ثَنْيِ الصدور، واستغشاء الثياب باستقلالٍ في العنايةِ والتنبيه إلَى نظيرَتِها، فالغرض تَكرار العناية، والتنبيه على محلِّ الجملتين، فمحلُّ الجملة الأولى: التنبيه على انصرافهم ليستخفوا، ومحلُّ الجملة الثانية: التنبيه على وقت استخفائهم، وهو حين يَسْتَغْشون ثيابهم[3].

المؤمنُ وإنْ كان عَريض القَفَا أعقل من كلِّ كافرٍ جَفَا

(1) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/365، والخطيب، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 6/273.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/318، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

دلالة ﴿حِينَ﴾:

﴿حِينَ﴾ في قولِه: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ظرف زمان متعلِّق بـ ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟﴾ أي: يستخفون حين كذا، أو متعلِّق بـ ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾، والفرقُ بين المُتعلَّقَين يظهر في الوقفِ والوصل، فعلى التعلُّق الأوَّل: يجوز الوقفُ على ﴿ثِيَابَهُمْ﴾، وجملةُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ استئنافٌ، وعلى التعلُّق الثاني: فالوقف على ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ قبيحٌ، للفصل بين الظَّرف وعامِلِه[1].

أضغانُ الكافرين مفضوحةٌ ولو جَهَدُوا في كتمانِها

سرُّ التَّعبير بـ ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾:

الفعلُ ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ في قوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، أي: يَغْشُون، فالسين للمبالغة والتأكيد، ويجوز أن تكون للطلب والاستقبال، أي: يلتمِسون ثيابهم غطاءً لهم، ولفظ الاستغشاء دالٌّ على إحكام الغطاء، فليس غرضُهم مجرَّدَ التغطية والسَّتر، بل الغرضُ السَّتْر الكامل الذي يحجُبُهُم عن رؤيةِ الرسول وسماعِه[2].

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَعْلَمُ﴾:

أفاد التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ أنَّ أفعالهم في موضع الترصُّد المستمرِّ، فكلَّما أعلنوا قولًا أو فعلًا أو أسرّوا قولًا أو فعلًا فالله يعلمُه، فكلُّ فعلٍ منهم يُقابِله عِلمٌ من الله بهذا الفعل خاصة، فالأفعال معلومةٌ بتفصيلها وجزئياتها وآحادها، فالتعبير بالمضارع ﴿يَعْلَمُ﴾ إشارةٌ إلى تمام علم الله بالجزئيات، كما يعلم الكليّات.

الله يعلمُ السِّرَّ وأخفى، فكيف بالظاهِر

معنى ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ موصولة، أي: الذي يسرّونه ويُعلِنونه، وهي هنا مستعملة في صفات العقلاء، وتفيد

الله يعلمُ الأشياء بحقائقِها ودقائِقِها

(1) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/366.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غشو - غشى).

الإبهام والعموم، فتقع على كلِّ شيء يَدخله السِّرُّ والعلانية منهم، ويصحُّ أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة تؤَوَّل مع الفعل بعدها بمصدر، أي: يعلم سِرَّهم وعلانيتهم، ودلالتها على اعتبار المصدريَّة: الجمع بين معنى المصدر ومعنى الفِعل في مَوْرِدٍ واحد[1].

نكتة التَّعبير بالمضارع في ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾:

أفاد التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾ مُزاولتَهم المستمرَّة لحالَي الإسرار والإعلان، فهم لا ينفكّون عن هاتين الحالَين، وما الإنسانُ إلّا كذلك.

ما من سِرٍّ أَوْ عَلَنٍ إِلَّا وَيَعْلَمُهُ اللهُ

موقع جملة: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾:

جملة: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ممّا قبلها، كأنَّه لما قال: إنَّهم يثنون صدورهم، ويستغشون ثيابهم ليستخفوا، سأل سائلٌ: كانَ حالُهُم مع الله الاستخفاء، فكيف حالُ الله معهم؟ فقيل: يعلم ما يسرّون، وما يعلنون، فالجملة في معنى المقابلة مع ما سبقها؛ لبيانِ الفرقِ بين حالهم مع الله الذي هو الاستخفاء منه، وحال الله معهم الذي هو تمام الاطلاع عليهم وكمال الإحاطة بهم، ويصحُّ إجراؤها استئنافيَّةً لتقرير أنَّه لا فائدة لهم مِن استخفائهم[2].

الكافرُ لا حياءَ عنده؛ إذْ لا حياءَ له مع ربِّه ولا عقْل

غرضُ تقديم العلم بالإسرار على الإعلان:

قدَّم العِلم بالإسرار على الإعلان، لإفادةِ تمكُّنِ عِلمِه ﷻ من جميع المعلومات، فكأنَّه يُشيرُ إلى سَبْقِ تعلُّقِ عِلمِه بالخفيِّ قبل الظاهر، ففي التقديم إشارةٌ إلى كمالِ الصِّفة في الكشْفِ والإدراك والدِّراية[3].

القدرةُ على الأعلى تقتضي القدرةَ على الأدنى

(1) سيبويه، الكتاب: 2/309، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/289، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/131.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/318، وصافي، الجدول: 11/219.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/186.

نكتةُ ذِكْر المفضول وعدم الاكتفاء بالفاضل:

في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾ ذكَرَ حال الإعلان، مع أنَّه مدلولٌ عليه بحال السرِّ، إذ من يعلمُ السرَّ أولى به أن يعلم العلانية؛ لدلالة تحقُّق الفاضل على تحقُّق المفضول، والنكتة في زيادة العلانية لِدفعِ توهُّم علمِهِ بالخفيّات دون الظواهر، فقطَع الوهمَ في ذلك على أهل الزَّيغ ذَوي العقول الضئيلة[1].

علمُ الله شامِلٌ كامِل وتفصيليٌّ جزئيٌّ

بلاغة المقابلة في الآية:

قوله: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، وقوله: ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يُقابِل قوله: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾؛ إذْ هيئة ثَنْي الصدور وهيئة استغشاء الثياب حالةٌ ظاهرة بمنطوقها، فقابَلتِ العلانية، والدُّخول في حال الاستخفاء بعد ثَنْي الصدور، واستغشاء الثياب حالٌ باطنة خافية، فقابلتْ قوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾، فكلُّ نظيرٍ مَسبوقٌ بنظيرِه الموافِق له في السياق، فالنَّظم مُطَّرِدٌ على مراعاة المناسبة وتوليدِ الألفاظ بعضها من بعض بحسب توارِدِ المعاني وجريانها في النَّصِّ.

العبـاد مشمولون بعلم الله في كلِّ حالٍ من السرِّ أو العلانية

نكتةُ الفصل في: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

جملة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليليَّةٌ لما قبلها، ولذلك فُصِلتْ، أي: يعلم ما يسرّون وما يعلنون؛ لأجلِ أنَّه شديد العلم بأخفى الأشياء وأبطنِها، وهو علمه بخفايا الصدور، فعِلمُه بالسرِّ العام أولى وعِلْمه بالجهرِ والعلانيةِ أيْسَرُ وأتَمُّ[2].

الله عليمٌ بنزَغاتِ الصُّدور التي هي أخفى من السِّرِّ

علَّةُ ختمِ الآية بصفة العلم:

ختْمُ الآيةِ بصفة العلم لِمُلاحظةِ المعلوماتِ في المطلَع، وهي الأحوال المُنْكَشِفَةُ بتلك الصِّفة، فلا يُجَلّيها إلّا العِلمُ، وهي ثني الصدور واستغشاء الثياب وحال الإسرار والإعلان، فنَاسبَ ختْمَها

فوق كلِّ ذي عِلمٍ عليم ولا منتهَى لعِلمِ الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

بما لا تنكشِفُ إلّا به، وفي ختم الفاصلة بصفة العِلم ﴿عَلِيمُۢ﴾ نكتةٌ جليلةٌ أخرى، وهو أنَّه سبحانه لمّا عبَّر عن العِلم كَصِفةِ فِعلٍ بصيغة المضارع في ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾؛ استوفى تحقيق ذلك بالإنباء عن العِلم كصفةِ ذاتٍ ثابتة بوصف المبالغة ﴿عَلِيمُۢ﴾، فالله ذو العلم المطلق والكامل، الذي لم يُسبق بجهل، ولا يَلحقه نسيانٌ، فهو العالِم الواسعُ المحيطُ بكل شيء جملةً، وتفصيلًا، سواء ما يتعلَّق بأفعاله، أو أفعال خلقه، وهو العالم بالسرائر، والخفيات التي لا يدركها عِلمُ الخلقِ.

لطيفةُ تنكير ﴿عَلِيمُۢ﴾:

تنكير صفةِ الجلالِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لإفادة التعظيم والكمال في الموصوف، وفي الوصفِ بنسبتِه إلى ذات الجليل، فهو عليمٌ عظيمٌ في ذاته، وكاملٌ في عِلمه، ولإفادة العموم والشمول، أي: عليمٌ بكلِّ شيءٍ لا يَعزُبُ عن عِلْمِه مثقالُ ذرَّةٍ.

عِلمُ الله دائمٌ كامِل لا حدَّ له ولا مَدَّ

نكتةُ المبالغة في صيغة (فَعِيل) لصفة العلم:

مجيء صفة الذّات الجليلة ﴿عَلِيمُۢ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ على وزن (فعيل) الذي يَصلُح على مِثالِ الصِّفة المشبَّهة ومثالِ المبالغة لإفادة معنى الديمومة، أي: دائمُ العلم لا يتغيَّر، ولا يَغيب، وكاملُ العِلم لا يَنْقُص، فصيغة (فعيل) أفادت استقصاءَ التعبير عن إحاطةِ العلم وسَعتِه بكلِّ ما تحملُه كلمةُ الإحاطةِ والسَّعةِ من معنًى ومدلول[1].

صِفاتُ الله وَاسِعَةُ الاشْتِمال، ولا يُحاذيها مِثالٌ في جَمِيعِ الأَحْوَال

غرضُ التعبير بالجملة الاسمية:

عبَّر بالجملة الاسميَّةِ المؤكَّدة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يقل: (إنَّه يعلم)؛ للدلالة على دوام الاستمرار، فهو

الله يعلم بما يكونُ قبل كوْنِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/324.

سبحانه لم يَزَل عالِمًا بذلك، وللدَّلالة على أنَّه سبحانه يعلمُ بالأشياء قبل وجودِها الخارجيِّ؛ إذِ الأشياءُ قبل ظهورها كانت مُضمَرةً في الصُّدور، وهو عليمٌ بذات الصدور[1].

لطافةُ الإيجاز بالحذف في: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الصُّدور أوعيةٌ للقلوبِ وأحوالِها

قوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: عليمٌ بالأشياءِ أو بالأسرارِ ذاتِ الصُّدور، فالكلام على حذف موصوف، أي: المُضمَرات والأسرار صَاحبةُ الصُّدور، أي: تلابِسُها، وتُساكِنُها مُلابسةَ الصّاحبِ لِصاحبِه ومساكنتَهُ[2].

بلاغة المجاز في: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الله سبحانه أقربُ إلى العبدِ ممّا في صدرِه من الخواطر والأفكار

قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كنايةٌ عن القلوب التي في الصُّدور، أو كناية عن الأسرار المُستكِنَّةِ في الصدور، والأسرارُ لمّا كانت مُضمرةً في الصدورِ؛ قيل لها: ذاتُ الصدورِ، فشَبَّه ما في الصدورِ من القلوبِ وأحوالها، أو الأسرار بالصاحِبِ في المُلابسةِ التامَّةِ لِصاحبِه، فذَكَرَ لفظَ المُشَبَّهِ به، وهو (ذات) بمعنى الصّاحب، وأريدَ المُشبَّه: وهو (الأسرار) على سبيل الاستعارة التصريحية، أو التمثيليَّة بملاحظةِ تشبيه هيئةٍ بهيئة وحالٍ بحالٍ في الملابسةِ والملازَمَة، وليس المراد بـ (ذات) هنا حقيقة الشيء أو نفْس الشيء، كما يَصلُحُ في (ذات بينِكم)؛ لأنَّ ذات على هذا المعنى تكون مُقْحمةً لتحقيق الحقيقة مُبالغةً وتأكيدًا، ولا هي من بابِ إضافة المسمّى إلى اسمِه، وليس هذا بمستقيمٍ هنا؛ إذْ يكون معناه: عَليمٌ بنفْسِ الصُّدور، ولا يُفيدُ هذا شيئًا؛ لأنَّ مواقعَ الصدور ونفْسَ الصُّدور معلومةٌ، وإنَّما إعجازُ صِفةِ العِلم في الإحاطةِ بما يَسْرِي فيها من الخواطرِ، وما يَجول فيها من الأحوال[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/198.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.
(3) الشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي على تفسير البَيضاوي: 5/71، والآلوسي، روح المعاني: 6/198.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعلان والجهر:

الجهر يكون بصوتٍ، والإعلان بصوتٍ وبغير صوت، فهو أعمُّ

الإعلان: هو مُطلَقُ إظهار الشيء سواء بإبرازه وكشْفِه، أو بالإشارةِ إليه لِيُلْمَح، أو بالدلالةِ عليه بالصَّوتِ والحاسَّة، ويَغْلِبُ استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فالمعنى: إذا ظهر للنَّفسِ، واسْتَظْهَرَتْهُ؛ فقد أُعلِنَ.

وأمّا الجهر؛ فهو إظهارُ الشَّيء بِإفراطِ حاسَّة السَّمع أو البصر، ومعنى إفراط الحاسَّة: انفعالها بإفراطٍ للمحسوس، صوتًا كان أو صورة، وأكثرُ ما يستعمل في الصَّوت، وقد ورد كلاهما في القرآن، فأمّا الجهرُ للسَّمع؛ ففي قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: 2]، وأمّا الجهر للبصر؛ ففي قوله: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]، أي: عِيانًا رؤيةً مُفرطَةً بالبصر[1].

الإسرار والإخفاء:

الإخفاء في الأعيان والمعاني، ويَغْلِبُ الإسرارُ في المعاني

الإسرار: هو إنزال الشيء منزلةَ السِّرِّ، والسِّرُّ: هو إخفاء الشيءِ في النَّفْس، ويُقال: في هذا الكلام سِرٌّ؛ تشبيهًا له بما يُستودَعُ في النَّفْس، ولذا غلبَ استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فلا يُقال: أسررتُ تحتَ الثيابِ قطعةَ خُبْزٍ، بل يقول: أخفيتُ، والإخفاء: هو سَتْرُ الشيء عن الحواسِّ، فلا يُرى، ولا يُسمَع، وكما يستعمل في الأعيان يستعمل في المعاني، ولذا أسند إلى الصدورِ ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: 19]، واستُعمِل في عموم كلِّ مَخْفيٍّ: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: 1]، فالإخفاء أعمُّ من الإسرار[2].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهر، علن).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 447، 533، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (خفى، سرر).

الجُزْءُ الثَّانِي عَشَرَ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»